الفصل الأول

أضواء على حياة السيدة عائشة

مولد السيدة عائشة ونشأتها:

لاخلاف فى أن السيدة عائشة رضى الله عنها ولدت بمكة. وقد ولدت فى السنة السادسة للبعثة النبوية الشريفة، وذلك لأن النبى ﷺ خطبها بمكة وهى فى سن السادسة[1] بعد مضى سنتين ـ أو قريباً من ذلك ـ من وفاة السيدة خديجة التى كانت قد توفيت قبل الهجرة بثلاث سنوات[2]، ثم بنى بها ﷺ فى شوال على رأس ثمانية أشهر من هجرته إلى المدينة[3]. وهى بنت تسع سنوات[4]، وتوفى وهى بنت ثمانى عشر سنة.

وقد نشأت نشأة عربية أصيلة، إذ دفعها أبوها ـ كعادة أشراف العرب ـ إلى من يقوم بتربيتها من عرب البادية، فتولى تربيتها جماعة من بنى مخزوم، وأكسبتها حياة البادية النضارة والفصاحة والصفات العربية الأصيلة، كما نشأت أيضاً نشأة إسلامية صميمة، إذ ولدت بعد انبثاق نور الإسلام، وفى بيت مسلم، وكان أبوها الصديق أول من أسلم من الرجال وكذلك كانت أمها أم رومان من المسلمات الأوائل وقد دخلت السيدة عائشة الإسلام مع أختها أسماء بعد أقل من عشرين إنسانا دخلوا الإسلام [5]، وبذلك تعد من المسلمات الأوائل.

نسبها وأسرتها:

تنتسب السيدة عائشة إلى قبيلة عربية مجيدة هى قبيلة «تيم» من أفخاذ قريش التى اشتهرت بالشجاعة والنجدة والذود عن الحمي، وعرفت بالكرم، وقامت تجارتها على الأمانة ورفق المعاملة، وعاشت على حظ طيب من الثراء. وقد أجلَّت قريش ـ زعيمة

---

(١) البخارى ٦/ ٢٠١ - ٢٠٢/ ٣٤٤٩

(٢) البخارى ٦/ ٢٠٢/ ٣٤٥١

(٣) ابن سعد ٨/ ٣٩- ٤٠

(٤) البخارى ٦/ ٢٠٢/ ٣٤٥١

(٥) سيرة ابن هشام ق ١ ص ٢٥٤.

العرب آنـذاك ـ هذه القبـيلة، فكونـت فى دار أحد كبار رجـالاتها ـ وهو عـبد الله بن جدعان ـ حلفا ينصر المظلوم وينجد الملهوف ويعين الضعيف، وهو (حلف الفضول)[1]، كما عهدت إلى أحد فضلائها ـ وهو أبو بكر الصديق ـ بأمر من أهم أمور الحياة فى ذلك العصر ـ وهو تسوية الدم وأداء المغارم والديات[2].

ولقد ورثـت السيدة عائـشة كثيـراً من عناصر الـفخار العربـى التى توفـرت فى هذه القبيلة، كما اعتمدت فى خصوماتها ـ إلى حد كبير ـ على مقومات السيادة والشرف التى يقوم عليها نسبها.

أما عن أسرة السيدة عائشة فقد كانت من أعرق الأسر العربية وأكرمها فهى أسرة أبى بكر الصديق رضى الله عنه عبد الله بن أبى قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تـيم بن مرة بن كعـب بن لؤى[3]. ومن الواضـح أن نسب أبى بكر الـصديق يلتـقى ونسـب الـنبى ﷺ عند مرة بـن كعب[4]، فالسـيدة عائشـة تنـحدر من أصل شريف.

وأم أبى بكر هى أم الخير سلمى بنت صخر بن عمر، وهى بنت عم أبى قحافة، وقد أنجبت منه أبا بكر فى السنة الثانية ـ أو الثالثة ـ من عام الفيل، فهو أصغر من النبى ﷺ بنحو عامين، وكانت أم الخير من المبايعات[5].

وقد بـنى أبو بكـر بزوجتين فـى الجاهليـة وزوجتين فى الإسـلام، فأما زوجتـاه فى

---

(١) سيرة ابن هشام ق ١ ص ١٣٣ ـ ١٣٤

(٢) أسد الغابة ٣/ ٣١٠.

(٣) الاصابة ٤/ ١٦٩، أسد الغابة ٣/ ٣٠٩، سيرة ابن هشام ١/ ٢٤٩، ابن سعد ٨/ ٣٩، سير النبلاء ١٠ ـ ١١

(٤) سيرة ابن هشام ق١ص١

(٥) أسد الغابة ٣/ ٣٠٩، والروض الأنف ١/ ٢٨٨

الجاهلية فهما: قيلة (وقيل: قتيلة) [1] بنت عبد العزى بن عبد أسد، وهى أم ابنه عبد الله وابنته أسماء، وقد طلقها أبو بكر فى الجاهلية [2]، ثم تزوج بعدها أم رومان وهى أم ابنه عبد الرحمن وابنته عائشة. وأما زوجتاه فى الإسلام فهما: أسماء بنت عميس. وهى أم ابنه محمد، ثم حبيبة بنت خارجة وقد مات عنها أبو بكر وهى حامل؛ فولدت بعد موته أم كلثوم[3]. وعلى هذا فقد كان للسيدة عائشة أخ شقيق واحد هو عبد الرحمن، لأمها أم رومان، وأخوان غير شقيقين هما عبد الله ومحمد، وأختان غير شقيقتين هما أسماء وأم كلثوم.

وأسماء وعبد الله هما أكبر أبناء الصديق، وهما شقيقان، وكانا على درجة عالية من الإيمان فى حين كانت أمهما قتيلة كافرة، ولهما مواقف رائعة فى نصرة الإسلام. فعبد الله هو الذى كان يأتى النبى ﷺ وأباه الصديق كل ليلة بالطعام وأخبار قريش حينما كانا مختفيين فى غار ثور[4]. وأسماء هى «ذات النطاقين»، وقد دخلت الإسلام فى أيامه الأولي، وتزوجت الزبير بن العوام، وهو ابن عمة الرسول ﷺ صفية بنت عبد المطلب، وكان قد أسلم وهو صبي، وهاجر مع زوجه أسماء وهى حامل بعبد الله، فولدته بقباء، وهو أول مولود فى الإسلام، وعاشت طويلا نحو مائة عام، وكف بصرها فى أواخر حياتها، ويحفظ لها التاريخ ـ ضمن ما يحفظ من مناقبها ـ كلمتها الخالدة لابنها عبد الله بن الزبير وقد حوصر وحم به القضاء: «يا بني، لا يضير الشاة سلخها بعد ذبحها»[5].

أما عبد الرحمن، فهو شقيق عائشة من أم رومان، وقد أسلم فى هدنة الحديبية

---

(١) كتاب نسب قريش ٢٧٦، تاريخ الطبرى ٤/ ٥٠

(٢) الحاكم ٢/ ٤٨٥

(٣) تاريخ الطبرى ٤/ ٥٠ نسب قريش ٢٧٥ ـ ٢٧٨.

(٤) أسد الغابة ٣/ ٢٩٩

(٥) انظر فى سيرة أسماء: أسد الغابة ٧/ ٩ ـ ١٠.

وحسن إسلامه بعد أن كان من كفار قريش فى بدر وأحد. مات فجأة، ودفن بمكة سنة ٥٣ هـ [١].

وأما محمد، فأمه أسماء بنت عميس الخثعمية وهى أخت ميمونة أم المؤمنين، وأخت لبابة زوج العباس عم النبى ﷺ، وكانت قد تزوجت جعفر بن أبى طالب وأسلما وهاجرا إلى الحبشة وولدت له هناك محمدا وعبد الله وعونا، ثم هاجرا إلى المدينة، ولما استشهد زوجها جعفر الذى لقب «بالطيار» وذلك فى مؤتة، تزوجها أبو بكر الصديق فولدت له ابنه محمداً بالبيداء بذى الحليفة فى الطريق إلى حجة الوداع، فهو أصغر أخوة السيدة عائشة من الرجال، وليست له صحبة ـ كما هو واضح ـ ولما مات أبو بكر تزوجها على بن أبى طالب فولدت له يحيي[٢].

وأم كلثوم هى أصغر أولاد الصديق، وليست لها أيضا صحبة، إذ ولدت بعد وفاة أبيها[٣]. وقد تزوجت فيما بعد طلحة بن عبيد الله ـ وهو تيمى من عمومة الصديق ـ وأنجبت منه عائشة بنت طلحة أجمل وهو نساء عصرها.

وكانت العلاقة بين السيدة عائشة وأبيها الصديق تقوم على الحب والثقة والاحترام فقد كان يراها ابنته الصغيرة الجميلة الذكية، وكان يراها زوجة للنبى الكريم ﷺ وأحب الناس إليه، وكان يراها أما للمؤمنين قد زكى رسول الله ﷺ علمها بالحديث والفقه، ولذلك كله كان الصديق يحبها ويجلها ويثق بها، فيناديها: «يا أمه»[٤]، ويسألها فى أمور الدين ويأخذ بقولها [٥]، ويروى عنها الحديث[٦]، كما كان يعطف عليها ويقول:

---

(١) أسد الغابة ٤/ ٤٦٩

(٢) المصدر السابق ٥/ ١٠٢ ـ ١٠٣

(٣) المصدر السابق ٧/ ٣٨٣

(٤) العقد الفريد ٤/ ٢٦٥ ـ ٢٦٦

(٥) البخارى ٢/ ٤٢٩ - ٤٣٠/ ١٢٥٤

(٦) الاجابة ٧٥

«انظرى حاجتك فاطلبيها إليّ»[1] ويقول لها: «يا بنية، ما من الناس أحد أحب إليّ غنى بعدى منك، ولا أعز عليَّ فقراً منك»[2]، كما نحلها ـ حال حياته ـ جداد عشرين وسقا من ماله[3].

وأم السيدة عائشة هى أم رومان [4] زينب[5]، بنت عامر بن عويمر بن عبد شمس بن عتاب بن أذينة بن دهمان بن الحارث بن غنم بن مالك بن كنانة[6]. وقد زكاها النبى ﷺ بقوله: «من سره أن ينظر إلى امرأة من الحور العين فلينظر إلى أم رومان»[7]، ونلاحظ فى هذا القول الشريف بشارة نبوية لها بالجنة وشهادة بالصلاح والجمال.

ولقد كانت أم رومان من المسلمات الأول فى مكة، بايعت النبى ﷺ وهاجرت إلى المدينة مع آل أبى بكر وآل النبى ﷺ. وتوفيت سنة ست للهجرة، ونزل رسول الله ﷺ فى قبرها[8].

ملامح شخصيتها:

كانت السيدة عائشة رضى الله عنها قوامة دائمة العبادة والتهجد[9] وكانت صوامة تصوم الدهر [10] ولا تفطر إلا يومى الفطر والأضحي، [11] وكانت قنوعا راضية زاهدة فى متاع الدنيا، واقترن زهدها فى الحياة بالعطف على الفقراء والمساكين والإحسان

---

(١) ابن سعد ٨/ ١٢٩

(٢) مالك ـ رواية محمد بن الحسن ص ٢٨٦

(٣) مالك ـ رواية يحيي ص ٧٥٢، عبد الرازق ٩/ ١٠١/ ١٦٥٠٧

(٤) أم رومان: بفتح الراء وضمها، ذكر ذلك الزركشى فى مقدمة كتاب (الاجابة) ص ٣٨

(٥) سيرة ابن هشام ص ٢ ص٢٩٩

(٦) تهذيب التهذيب ١٢/ ٤٣٣، أسد الغابة ٤/ ١٨٨، الاستيعاب ٤/ ١٨٨١

(٧) أسد الغابة ٧/ ٣٣١، ابن سعد ٨/ ٢٠٢

(٨) تفسير القرطبى ١٢/ ١٩٧، تفسير ابن كثير ٦/ ٢٤ الاجابة ٣٩

(٩) عبد الرزاق ٨/ ٤٥٤ / ١٥٨٨٧

(١٠) ابن سعد ٨/ ٤٧

(١١) عبد الرزاق ٤/ ١٥٧/ ١٣١٠

إليهم، وكانت جوادة كريمة كثيرة الصدقات، حتى ليراها ابن أختها عروة بن الزبير ذات يوم وهى تتصدق بسبعين ألفا وأنها لترقع جانب ثوبها(١)، وسألها مسكين وكانت صائمة وليس فى بيتها إلا رغيف واحد فأعطته إياه.(٢)، وبعث لها عبد الله بن الزبير بغرارتين مملوئتين بالمال فيهما مائة ألف، فجعلت تقسم المال فى الناس، وكانت صائمة فى هذا اليوم، فلما حل وقت إفطارها لم تجد شيئاً لأنها نسيت أن تستبق لنفسها درهما واحداً تشترى به طعاما لها (٣). وهكذا كانت لا تمسك شيئاً مما جاءها من رزق الله إلا تصدقت به(٤).

ولكن الشخصية الحقيقية للسيدة عائشة تتكون من عناصر أخلاقية خاصة بها وتميزها عن سواها، ويعد الصدق أبرز عنصر فى شخصية السيدة عائشة، وهو اللون الأساسى الذى اصطبغت به أخلاقها، ولقد كانت فى ذلك ابنة أبيها الصديق حقا، كان أبوها صديقاً، وكانت هى مثله صديقة، وليس هناك أدل وأبلغ على هذه الحقيقة من ثبوت عدم تورطها فى قضية وضع الأحاديث وخاصة السياسية منها المتعلقة بالفتنة وأحداثها التى استفحلت فى ذلك الزمن، فعلى الرغم من أن السيدة عائشة كانت قد أبت ـ دفاعاً عما تعتقده من الحق ـ إلا أن تشترك فى الخصومات والمعارك، وكانت ضالعة فى الخلافات السياسية ضلوعاً عنيفا وصل إلى درجة المواجهة العسكرية السافرة ـ إلا أنها ـ وهى فى خضم هذه الأحداث الدامية والصراعات الرهيبة ـ لم تقل قط فى كل ما ثبتت صحة نسبته إليها حديثا واحداً موضوعاً، أو حتى تمسه الشبهات من قريب أو من بعيد، ولم تضع حرفا واحداً لتؤيد به دعواها وتخزى به دعاوى خصومها، ولم تحرف كلمة واحدة إلى غير موقعها أو إلى غير معناها.

بل وأعظم من ذلك أنها كانت إذا روى أمامها حديث أو وصل إلى سمعها أو إلى

---

(١) ابن سعد ٨/ ٤٥، الزهد ١٦٥

(٢) الموطأ ـ رواية يحيي ـ ٩٧٧

(٣) ابن سعد ٨/ ٤٦

(٤) البخارى ٦/ ٨/ ٣١٣٤

علمها حديث فتجد فيه سوء فهم من رواية أو توهم سمع أو لبس أو سهو، فلا تطيق إلا أن تبادر فتصيح به وتنبه على ما فيه فى جرأة شجاعة وعلم أمين، حتى لقد كان مسروق حينما يروى عنها يقول: «حدثتنا الصديقة بنت الصديق»[1]، وذلك على الرغم من أنه كان خصما سياسيا لها يدين خروجها ضد علي.

وإننا ليشتد تبجيلنا لهذه السيدة الصديقة حينما كانت تسئل عن رأيها فى على بن أبى طالب، فتجيب بكل الصدق والشجاعة ـ وبينهما ما بينهما ـ «إن كان ما علمت صواما قواما»[2].

وبقدر ما كانت السيدة عائشة شديدة فى الحق حريصة عليه بقدر ما كانت شريفة فى خصومتها، فهى على سبيل المثال ـ على الرغم مما كان ينشب بينها وبين أزواج النبى ﷺ ما ينشب عادة بين الضرائر ـ لم تكن تذكر احداهن إلا بالخير والثناء الجميل، فتقول مثلا عن السيدة ميمونة: «إنها كانت من أتقانا لله وأوصلنا للرحم[3]، وتقول عن السيدة زينب: «ولم أر امرأة قط خيراً فى الدين من زينب وأتقى لله عز وجل وأصدق حديثا وأوصل للرحم وأعظم صدقة وأشد ابتذالا لنفسها فى العمل الذى تصدق به وتقرب به، ما عدا سورة من حدة كانت فيها تسرع منها الفيئة»[4]. ولعلنا لاحظنا مدى الصدق والموضوعية فى كلمتها عن السيدة زينب، فهى تذكر محاسنها كما تذكر هناتها، ولكنها تقدم المحاسن على الهنات، وتسهب فى ذكر المحاسن وتوجز فى ذكر الهنات. وهذا الشرف فى الخصومة عندها إنما هو أثر طبعى لصفة الصدق التى تأصلت فى نفسها، ولصفة الحياء أيضاً التى اتصفت بها، حتى لقد كانت تدخل الحجرة التى دفن فيها النبى ﷺ وهى غير محتجبة، فلما دفن معه أبوها الصديق كانت تدخلها أيضا غير

---

(١) ابن سعد ٨/ ٤٥

(٢) الترمذى ١٠/ ٣٧٥

(٣) ابن سعد ٨/ ٩٩

(٤) النسائى ٧/ ٦٤ ـ ٦٦.

محتجبة، وكانت تقول فى ذلك: إنما هما زوجى وأبي. فلما دفن معهما عمر بن الخطاب كانت لا تدخل هذه الحجرة إلا إذا شدت عليها ثيابها وحجابها حياء من عمر[1]. ولقد دخل عليها أعمى فاستمهلته حتى تحجبت فتعجب من ذلك، فقالت له: «إن لم تكن ترانى فإنى أراك»[2].

وفى نفس الوقت، كانت السيدة عائشة غير بعيدة عن العفو والرضا إذا وجدت نفسها أمام موقف آسر طيب ممن أساء إليها، فمثلا تورط حسان بن ثابت فى الخوض فى الإفك تورطاً شديداً كان جزاؤه أن كف بصره إنتقاماً من الله[3]، ولكن السيدة عائشة تجاوزت عنه وغفرت له، حتى لقد كانت تلقى له بالوسادة ليجلس عندها[4]، حدث ذلك منها أمام اعتذار حسان لها بشعر رقيق يقول فيه:

حصان رزان ما تزن بريبة وتصبح غرثى من لحوم الغوافل[5]

وحدث ذلك منها أمام دفاع حسان عن النبى ﷺ بشعره حيث يقول:

فإن أبى ووالده وعرضى لعرض محمد منكم وقاء[6]

لهذا تسامحت معه وقبلت عذره، لأنه اعتذر لها بشعر يسير مع الأجيال ويعيش مع الزمان ويعلن طهرها وبراءتها على أسماع الدنيا، ولأنه كان يدافع عن رسول الله ﷺ ويدفع عنه أذى المشركين بشعره الذى كان يدحضهم به.

وأخيرا، فإن من أعظم صفات السيدة عائشة صفة الذكاء، فقد كانت فطنة نجيبة بعيدة النظر ثاقبة الفكر، وتوهج ذكاؤها فى سائر مظاهر حياتها الاجتماعية والفكرية والسياسية، وهى فى تلك الصفة أيضا تشبه أباها الصديق شبهاً ملحوظاً.

---

(١) الحاكم ٤/ ٧

(٢) ابن سعد ٨/ ٤٧ .

(٣) البخارى ٧/ ٣٤٦ ـ ٣٤٧/ ٤١٢٣

(٤) عبد الرزاق ١١/ ٢٣٧/ ٢٠٤٢١، تفسير الطبرى ١٨/ ٨٨

(٥) البخارى ٦/ ٣٥١

(٦) البخارى ٦/ ٣٤٣

حينما تزوجت رسول الله ﷺ كانت لا تزال طفلة صغيرة ساذجة تلعب بالعرائس[1]. وبفرس له جناحان [2]. وتخبىء دماها وراء ستار حجرتها[3]، وكانت تلهو مع الجوارى على باب الدار[4]، وتتأرجح على الأرجوحة[5]، ولكن على الرغم من كل ذلك فقد ساعدها توقد ذهنها وسرعة بديهتها على أن يكبر فهمها وتفكيرها وادراكها بمعدل أسرع من نمو جسمها واستحقت بذلك ـ عن جدارة ـ أن تكون سفيرة النبى ﷺ إلى عالم النساء فتبلغ عنه وتعلم المسلمات (والمسلمين أيضا) كثيرا من شئون الدين الدقيقة الحرجة مثل كيفية التطهر من دم الحيض ومن الجنابة، ومتى يكون ذلك التطهر، وماذا يحل للرجل من امرأته وهى حائض، وما حدود العلاقة بين مظاهر المعاشرة الزوجية وبين أمور العبادة من صلاة وصوم، حتى لقد كان النبى ﷺ يستحسن ذلك منها ويقول لها: «يا موفقة» [6].

ومكنها ذكاؤها أيضاً من أن تعى عن رسول الله ﷺ أكثر من ألف حديث شريف، وأن ترويها عنه بكل دقة، بل وأن تعى عنه جوهر الفتوى فى كثير من مسائل الدين، حتى إنها كانت توظف ما حصلت عليه من علم نبوى فى حل الكثير من المشكلات التى كانت تواجه المسلمين والمسلمات، فيهرعون إليها فتفتيهم برأيها الصائب السليم الذى أقامته على أعمدة راسخة من العلم النبوى الشريف بما أوتيت من قدرة كبيرة على الفهم الفقهى والاستنباط الشرعى كتلميذة نجيبة لرسول الله ﷺ،وقد انفردت بعدة آراء فقهية خاصة بها، تنم عن دقة فهمها وبراعة استنباطها. وسوف نتحدث عن ذلك فيما بعد عند حديثنا عن خصائص تفسيرها ومعالمه فى الفصل الثالث.

ومن ناحية أخري، فقد كانت السيدة عائشة على فهم لسنة النبى ﷺ وعلى إحاطة كاملة بها، حتى أصبحت مرجعا أصيلا أساسيا فى السنة النبوية الشريفة، وكان مشيخة

(١) ابن سعد ٨/ ٤٠ ـ ٤٢
(٢) أبو داود ١٣/ ٢٧٩
(٣) المصدر السابق نفسه
(٤) البخارى ٦/ ٢٠١ ـ ٢٠٢/ ٣٤٤٩
(٥) المصدر السابق نفسه
(٦) السمط الثمين ٣٤

الصحابة يسألونها ويجلون علمها وفقهها، وكانت هى توضح لهم ما قد يغمض عليهم فهمه من بعض الأحاديث أو ما يستشكل أو يلتبس عليهم منها، وكانت تستدرك عليهم ما قد يكونوا أخطأوا فى فهمه أو أخذوه على غير وجهه وتردهم إلى صوابه وهكذا؛ حتى لقد استطاع الزركشى أن يجمع لها طائفة قيمة من استدراكاتها على الصحابة فى كتاب خاص أسماه «الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة».

زواجها من النبى صلى الله عليه وسلم:

بنى هذا الزواج على أساس بشارة إلهية من الله سبحانه وتعالي. فحينما توفيت السيدة خديجة، وجد الرسول ﷺ عليها وجدا شديدا حتى خشى عليه[1]؛ فأراد الله أن يواسيه وأن يعوضه عنها؛ فأراه فى المنام جبريل حاملا قطعة حرير خضراء ويقول له: «يا رسول الله، هذه تذهب بعض حزنك؛ وان فى هذه خلفا من خديجة، فاكشف عنها؛ فيكشف عنها فاذا هى صورة السيدة عائشة، ويقول له جبريل: هذه امرأتك، هذه زوجتك فى الدنيا والآخرة، فيقول النبى ﷺ: «إن يك هذا من عند الله يمضه»[2].

ونحن نفهم هذه الرؤيا على حقيقتها الظاهرة، ونؤمن بأن رؤيا الأنبياء حق وأنها من عند الله، ولا نوافق العقاد على ما ذهب إليه من أنها مجرد تعبير عما كان فى ضمير النبى ﷺ من نية الزواج، أو أنه كان يناجى نفسه بأمنيته فى الزواج فطابقت السيدة عائشة مثال هذه الأمنية[3].

كذلك لم يكن زواج النبى ﷺ من السيدة عائشة من أجل «توطيد العلاقات» مع أبى بكر كما نجد فى بعض المصادر القديمة وعند بعض الباحثين المحدثين، فنحن لا نعد هذا الزواج نوعا من المكافأة أو رد الجميل بعض للصديق نظير مواقفة المخلصة فى خدمة

---

(١) ابن سعد ٨/ ٤١

(٢) انظر: البخارى ٦/ ٢٠٢/ ٣٤٥٠، الترمذى ١٠/ ٣٧٨ ـ ٣٧٩، أسد الغابة ٧/ ١٩١، ابن سعد ٨/ ٤١، ٤٤، ٤٦، ٥٤.

(٣) الصديقة بنت الصديق ٦٣

النبى ﷺ، إنما الحقيقة أن العلاقة بين الرسول ﷺ وأبى بكر كانت علاقة صداقة إسلامية وثيقة لدرجة أن النبى ﷺ كان يختلف كل يوم إلى بيت أبى بكر، وكان ـ كما قالت السيدة عائشة ـ «لا يخطئه يوما واحداً لا يزور فيه بيت أبى بكر، منذ أسلم أبى بكر إلى أن هاجر معه»(١)، فلما توفيت السيدة خديجة فقد الرسول ﷺ بوفاتها العون والنصير، ووقف وحده فى ميدان الدعوة متصديا للكفار متعرضاً لأذاهم بعد أن كانت تمنعه منهم وتهيئ له أسباب الاستقرار المادى والمعنوى. ولم يجد النبى ﷺ أمامه من ملاذ وسكن بعدها إلا فى بيت صاحبه أبى بكر المحب الوفى المخلص له وللدين. ومن هنا جاءت البشارة الإلهية بزواجه من السيدة عائشة ابنة صديقه الحميم محققة الراحة النفسية التى كان النبى ﷺ يفتقدها، الأمر الذى يضمن استمرار الدعوة وسيرها فى طريقها المنشود. ولذلك ساقت العناية الإلهية خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون إلى النبى ﷺ لتفاتحه فى موضوع الزواج وتعرض عليه سودة وعائشة فرضى ولم يمانع. وإذاً فلم يكن أبو بكر ولا النبى ﷺ هو البادئ بالتفكير فى موضوع زواج السيدة عائشة، وإنما كانت خولة بنت حكيم هى التى بدأت ففاتحت النبى ﷺ وعرضت عليه سودة وعائشة، ولما وافق النبى ﷺ انطلقت إلى أبى بكر الذى يثبت هنا عدم وجود أى تفكير من ناحيته فى موضوع المصاهرة بينه وبين النبى ﷺ وذلك حينما دهش من طلب النبى ﷺ يد عائشة، بعد أن كان يؤمن أشد الايمان بأن الأخوة الإسلامية التى تجمعه بالنبى ﷺ فى حكم أخوة الدم الحقيقية، ولذلك قال لخولة: «وهل تصلح له؟ إنها بنت أخيه»، فأوضح النبى ﷺ لخولة الفرق بين الأخوة الإسلامية وأخوة الدم، وقال لها: «ارجعى وقولى له: أنت أخى فى الإسلام وابنتك تصلح لي»، فوافق أبو بكر(٢)، ولكنه كان قد وعد بعائشة لمطعم بن عدى أن يزوجها لابنه جبير، إذ كان المسلمون لا يزالون يصهرون إلى المشركين رغبة فى أحسابهم من جهة(٣)، ولأن الإسلام لم يكن قد

---

(١) ابن سعد ٨/ ٥٤

(٢) أسد الغابة ٧/ ١٨٩ ـ ١٩٠، الاصابة ص٨ ص١٧

(٣) تفسير الطبرى ٢/ ٣٧٩

فرق بينهم بعد من جهة أخري[1]. وهنا يثبت أبو بكر مرة أخرى أنه لم يكن بالمبيت النية فى تزويج عائشة من النبى ﷺ، ولم يكن بالمدبر لذلك قط، كما يثبت أيضا أنه جدير حقاً بلقب الصديق وأن يكون هذا اللقب علماً له. وذلك حين لم ينكث بوعده للمطعم حتى ولو كان فى نكثه برجل مشرك ظفرة بمصاهرة سيد الخلق رسول الله ذى الخلق العظيم، فذهب إلى المطعم أولاً، فألقاه ممتعضا من إتمام زواج ابنه جبير من عائشة، فاستيقن من عناد المطعم وامرأته للإسلام، وتأكد من استحالة عيش ابنته الصغيرة الحبيبة فى بيت كفار معاندين، حينئذ فقط تحلل من وعده[2] وأرسل خولة إلى النبى ﷺ يرحب به[3].

وهذه الواقعة تنفى إدعاء وجود أى تفكير أو تدبير مسبق بين النبى ﷺ وأبى بكر، أو بين كل منهما ونفسه فيما يتعلق بالمصاهرة بينهما، مما يدحض إدعاء المستشرق التبشيرى لامنس الذى صور له خياله المريض هذا الزواج بشكل متهافت وسخيف فى صورة صفقة سياسية واقتصادية واجتماعية لمصلحة أبى بكر لتكون أكبر معين له فى أعماله ولتكون تمهيداً له يمكنّه فيما بعد من الوصول إلى الحكم على رأس «الحكومة الثلاثية» حيث يخلفه عمر ثم أبو عبيدة بن الجراح[4].

والزواج عند العرب يومان: يوم الإملاك ـ وهو يوم العقد ـ ويوم البناء ـ وهو يوم الدخول ـ ولربما تم الأمران معاً فى يوم واحد [5] وقد جرى زواج النبى ﷺ بعائشة على عادة العرب، فحينما أرسل أبو بكر إلى الرسول ﷺ بعد أن تحلل من وعده للمطعم إذ تأكد من عناده للاسلام وعدم رغبته فى المصاهرة، جاء النبى ﷺ فعقد على عائشة،

---

(١) لم يكن قد نزل بعد قوله تعالي: ﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن﴾، فهو من الآية رقم ٢٢١ من سورة البقرة وهى سورة مدنية.

(٢) سير النبلاء ٢٩

(٣) السمط الثمين ٣٦

(٤) عائشة أم المؤمنين ـ د. زاهية قدورة ص ٢١٨

(٥) المصدر السابق ص ١٠٤

وأصدقها خمسمائة درهم[١] وكان ذلك بمكة[٢]، فى شوال[٣] السنة الثانية عشرة للبعثة النبوية، وكانت عائشة فى ذلك الوقت بنت ست سنوات[٤].

ولم يتزوج النبى ﷺ بكراً غيرها[٥]، ولم يتزوج امرأة أبواها مهاجران غيرها بلا خلاف[٦].

هذا عن الإملاك أو يوم العقد، أما يوم البناء فلم يأت إلا بعد أن هاجر النبى ﷺ إلى المدينة بثمانية أشهر[٧]، أى فى شهر شوال [٨] من مقدمة المدينة، وكانت عائشة فى ذلك الوقت بنت تسع سنوات[٩].

ولقد تقول بعض المستشرقين على زواج النبى ﷺ من عائشة ووصفوا هذا الزواج بأنه «الجمع الغريب بين الزوج الكهل والطفلة الغريرة العذراء»[١٠]، وقد قصرت نظرتهم فى ذلك وأخطأوا لأنهم يقيسون هذا الزواج بنظرة عصرية، أى بالقياس إلى ما يحدث فى عصرنا الآن حيث يتقدم سن الفتاة فى الزواج ولا تتزوج عادة إلا بعد أن تكون فوق الخامسة والعشرين أو فوق العشرين على الأقل نظراً للظروف الحضارية والطبقية والتعليمية الراهنة. ولكن على الرغم من اعتياد الناس لهذا الأمر إلا أنهم يستهجنونه ويستاءون منه ويتمنون لو زوجوا بناتهم صغيرات.

---

(١) النسائى ٦/ ١١٦ ـ ١١٨

(٢) عبد الرزاق ٧/ ٤٨٩/ ١٣٧٩٩٧، ابن سعد ٨/ ٥٤، ١٥٦ ـ ١٥٧

(٣) النسائى ٦/ ٧٠، ١٣٠، الترمذى ٤/ ٢١٥، الدارمى ٢/ ١٤٥

(٤) البخارى ٦/ ٢٠١ - ٢٠٢/ ٣٤٤٩، ٣٤٥١

(٥) سير النبلاء ١٨

(٦) الاجابة ٥٩

(٧) ابن سعد ٨/ ٣٩ ـ ٤٠. ١٥٦ ـ ١٥٧

(٨) الترمذى ٤/ ٢١٥، النسائى ٦/ ٧٠، ١٣٠، الدارمى ٢/ ١٤٥

(٩) البخارى ٦/ ٢٠٢/ ٣٤٥١

(١٠) نساء النبى ـ د. بنت الشاطئ ص ٧٦

وفات أولئك المستشرقين أن العرب فى عصر الرسول ﷺ وما بعده لم تستنكر زواج الرسول ﷺ من عائشة على الرغم من مظهر فارق السن الكبير بينهما، ولم تر فى ذلك عجباً، لأن العرب ألفت هذا الأمر تماماً، فقد تزوج عبدالمطلب جد الرسول ﷺ هالة الزهرية بنت عم آمنة والتى تقارب آمنة فى السن فى اليوم الذى تزوج فيه عبد الله أصغر أبنائه آمنة، وتزوج عمر بن الخطاب ابنة عليٍّ بن أبى طالب،وتزوج طلحة بن عبيد الله أم كلثوم ابنة أبى بكر التى ولدت بعد وفاة أبيها. وإذاً فقد كانت مسألة زواج الرجل الكبير من الفتاة الصغيرة مسألة عادية عند العرب، وإلا كان كفارهم هم أول المهاجمين للنبى ﷺ وقد كانوا يتلمسون أى سبيل للطعن عليه ولو بهتانا وزوراً.

وأخطأ هؤلاء المستشرقون حين استنكروا ذلك الزواج وظنوه مقصوراً على العرب وحدهم، وقد جهلوا ـ أو تجاهلوا ـ أن مثل هذا الزواج يعد مسألة عادية أيضاً عند غير العرب، وذلك بشهادة واحد منهم وهو المستشرق بودلى الذى يقول: «إن زواجا مثل ذاك كان ولا يزال عادة أسيوية.. وإن هذه العادة لا زالت قائمة فى شرق أوربا، وكانت طبيعية فى أسبانيا والبرتغال إلى سنين قليلة، وإنها ليست غير عادية اليوم فى بعض المناطق الجبلية البعيدة بالولايات المتحدة(١).

ونسى هؤلاء المستشرقون أو تناسوا أنها روت وحدها حوالى ألف حديث نبوى أوضحت فيها كثيراً من مسائل العبادات والحدود والأحكام الإسلامية، وأن لها الكثير من الفتاوى الفقهية التى اجتهدت فيها، وأنها استدركت على كبار الصحابة كثيرا من الأحاديث والمفاهيم الفقهية حتى أفرد أحد العلماء المسلمين كتابا عنها فى ذلك(٢)، كما نسوا ـ أو تناسوا ـ الدور السياسى الملحوظ الذى لعبته السيدة عائشة على مسرح التاريخ العربى الإسلامي.

---

(١) الرسول ـ بودلى ـ الترجمة العربية ص ١٢٩

(٢) هو كتاب «الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة» لبدر الدين الزركشي.

وقع المستشرقون فى ذلك كله لأنهم لم يلحظوا الأمر بدقة، فهذه الفتاة الصغيرة قد نمت شخصيتها نمواً سريعاً رائعاً فى بيت النبوة ونضج وعيها وفكرها العلمى والسياسى والاجتماعى والديني، بل نضجت أنوثتها وتفوقت دربتها بشئون الزواج الدينية الدقيقة حتى لتسألها إحدى النساء عن الحفاف، فتفتيها بقولها: «إن كان لك زوج فاستطعت أن تنزعى مقلتيك فتضعيهما أحسن مما هما فافعلي»(١).

مع النبى صلى الله عليه وسلم:

قامت علاقة السيدة عائشة مع زوجها النبى ﷺ على محورين رئيسين هما: الحب والتعلم.

دار محور الحب على حقيقة واضحة وهى أن النبى ﷺ كان يحب السيدة عائشة حباً كبيراً عظيم المدي، فلم يسأله أحد قط عن أحب البشر إليه قاطبة إلا وقال: عائشة(٢)، وكان يناجى ربه فى حبها ويقول: «اللهم هذه قسمتى فيما أملك، فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك»(٣)، وحين نزلت آية التخيير(٤) بدأ بها وأمرها أن تستشير أبويها(٥)، بل تعدى حبه لها الدنيا إلى الآخرة، فأراه الله كفيها فى الجنة ليهون عليه موته، وقبضه بين سحرها ونحرها وفى بيتها وفى يومها، وامتزج ريقه بريقها فى آخر يوم له من أيام الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة. وهكذا صار حبه إياها علماً عليها فسميت «حبيبة حبيب الله» و «خليلة رسول الله»(٦).

---

(١) ابن سعد ٨/ ٤٨

(٢) البخارى ٧/ ٤٩/ ٣٧٨٩

(٣) الدارمى ٢/ ١٩٤٤

(٤) قوله تعالي: ﴿يا أيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها﴾... الآيتان ٢٨، ٢٩ من سورة الاحزاب.

(٥) البخارى ٧/ ٣٧٥/ ٤١٤٤

(٦) سير النبلاء ٥٩ ـ ٦٠، ٧٢

والأدلة كثيرة وعظيمة على هذا الحب الكبير الرائع: كان إذا افتقدها سمعته ينادى عليها بصوت خافت حنون: «واعروساه»[1]، وكانت إذا مرضت اعتنى بها وزاد من لطفه معها[2]، بل أحس وكأن الألم به هو، فإذا عانت صداعا وقالت: وارأساه، قال لها: بل أنا يا عائشة وارأساه[3]،وكانت إذا بكت مسح دموعها بردائه الطاهر ويده الشريفة[4]، وكان يسبغ عليها من عطفه وحنانه فإذا وجدها تلعب بالعرائس فلا ينهرها ولا يروعها، وإنما يفرح بلعبها ويضحك لها حتى ترى نواجذه[5]، وإذا دخل عليها فوجدها تلعب بعرائسها استتر بثوبه منها[6] حتى لا تخجل منه وتمتنع عن اللعب، وكانت لها صويحبات صغيرات تشاركنها اللعب بالعرائس فكن إذا رأين النبى ﷺ دخل خرجن وإذا خرج دخلن، فكان إذا دخل ورآهن طمأنهن وقال لهن برقة وهدوء: مكانكن، ولكنهن كن يستحين منه ويفررن خارج الحجرة فيخرج ويسر بهن إلى عائشة ليلعبن معها[7] ولا يحرمها هذه المتعة. وهكذا كان يحب دائماً أن يدخل البهجة والسرور على قلبها، فتسبقه مرة ويسبقها مرة أخرى ويقول لها: هذه بتلك[7]، ويحملها على عاتقه لتشاهد الحبشة وهم يلعبون بالحراب فى صحن المسجد[9]، ويترك معها الجاريتين الأنصاريتين تغنيان لها وتدففان فى بيته الشريف، ويلوم أبا بكر على انتهاره لهما[10]، وكان يستمع بسرور إلى حكاياتها الساذجة كلما جلس أمامها ينصت وهى تحكى له حكاية أم زرع وأبى زرع[11]، وإذا رآها نائمة خرج لمهامه متسللا بهدوء «انتعل رويدا،

---

(١) الإجابة ٦٩، السمط الثمين ٥٥

(٢) صرحت عائشة بذلك فى كافة رواياتها الحادث الافك.

(٣) الدارمى ١/ ٣٧ ـ ٣٨، السمط الثمين ٦٤

(٤) السمط الثمين ١٢٢

(٥) أبو داود ١٣/ ٢٧٩

(٦) ابن سعد ٨/ ٤٤

(٧) أبو داود ١٣/ ٢٧٩، ابن سعد ٨/ ٤٠ ـ ٤٥

(٨) أبو داود ٧/ ٢٤٣

(٩) البخارى ٥/ ٩٧ ـ ٩٨/ ٦٢٠٥

(١٠) البخارى ٦/ ٢٠/ ٣١٥٤

(١١) ابن ماجه ١/ ١٦٣، الحاكم ١/ ٥٧١

وأخذ ردائه رويدا، ثم فتح الباب رويدا، وخرج وأجافه رويدا»[1]، وذلك حتى لا يقض مضجعها، وإذا دعاه أحد إلى الطعام طلب منه أن يدعو معه عائشة أيضاً[2]، فقد كان يسره سرورها ويحزنه حزنها ويشعر بها متى رضيت ومتى غضبت[3]، وكان أكثر رحمة بها من أبيها نفسه وأرفق بها منه، فإذا غضب منها أبوها وضربها وأدماها حال النبى ﷺ بينهما ولام أبا بكر وغسل دمها عن ملابسها بيده الشريفة[4]، وكما كان النبى ﷺ يفيض عليها من حبه بحاراً فياضة من الرقة والحنان والعطف، كذلك انسحبت رحمته بها على شكل بركة نبوية شريفة على أمته الإسلامية بأسرها، فلم يحرم على المسلمين مثل هذه الأنواع من اللهو والغناء وسباق العدو، كما جعل من دعائه لها بالمغفرة دعاء لأمته كلها[5]، وجعل من دعوته عليها حينما غضب منها ذات يوم زكاة وطهوراً لأى مؤمنة أو مؤمن يغضب منه ويدعو عليه[6].

والذى يهمنا من ذلك هو أن هذا الحب الكبير أكسبها الحظوة لديه والشجاعة العلمية، مما أسفر عن وقوفها بصفة دقيقة على كثير من مسائل الدين الحساسة التى تتعلق بحقائق العلاقة الحسية بين الرجل وزوجته فى الإطار الإسلامى، وجعلها أحد المراجع الأساسية التى يرجع إليها فى ذلك.

أما المحور الآخر الذى دارت عليه العلاقة بين النبى ﷺ وزوجته السيدة عائشة فهو محور التعلم، فقد كانت تجلس أمامه مجلس التلميذة النابهة من أستاذها الكبير والسيدة المؤمنة أمام النبى المرسل.

---

(١) البخارى ٦/ ٤١/ ٢٣٥٢

(٢) ابن سعد ٨/ ٥٠

(٣) البخارى ٧/ ٣٤ ـ ٣٦ (طبعة الشعب).

(٤) النسائى ٧/ ٧٣ ـ ٧٥، وأجافه: أغلقه بهدوء وبطء.

(٥) النسائى ٦/ ١٥٨

(٦) البخارى ٧/ ٤٧ (طبعة الشعب)

(٧) ابن سعد ٨/ ٥٦، السمط الثمين ٥٠ ـ ٥٢

(٨) السمط الثمين ٤٨ ـ ٤٩

(٩) مسند أحمد ٦/ ٥٢

وقد تبدى ذلك واضحا فيما يأتى:

١ ـ استيعابها لوفرة وافرة من السنن النبوية الشريفة، حيث روت عن النبى ﷺ حوالى ألف حديث تشتمل على أغلب مسائل الفقه والتشريع.

٢ ـ فهمها الثاقب للسنة النبوية إلى الدرجة التى أصبحت بها المرجع العلمى الأول والأصيل لكبار الصحابة فى كثير من قضايا التشريع والفتوى، فأثرت التراث الإسلامى بمجموعة نفيسة قيمة من استدراكاتها عليهم.

٣ ـ كشفها عن كثير من شئون الرسول ﷺ الخاصة فى بيته رجلا وزوجا وإنسانا.

٤ ـ وصولها إلى مرتبة السفير النبوى إلى عالم النساء المسلمات فيما يختص بشئونهن الدينية الدقيقة، وفرجت بذلك كثيراً من مسائلهن الحرجة.

وسوف نتناول دور السيدة عائشة العلمى فى هذه المجالات عند حديثنا عن تفسيرها القرآن بالسنة النبوية وذلك فى الفصل الثالث.

حادث الإفك:

يعد حادث الافك أفظع حادث تعرضت له حياة السيدة عائشة الزوجية، فقد اتهمت فى شرفها، وهى الزوجة الطاهرة العفيفة التقية التى تنتمى إلى أسرة شريفة ولم تعرف الدنس قط.

ولقد أنزل الله سبحانه وتعالى براءة السيدة عائشة من فوق سبع سماوات طباق شداد، فى ست عشرة آية كريمة متوالية مدوية، أعلن فيها براءتها وأثبت طهرها، وسبح نفسه فى تنزيهها كما سبح نفسه لنفسه فى تنزيهه، وشهد لها فيها بأنها من الطيبات، ووعدها بالمغفرة والرزق الكريم، وجعل من برائتها هذه قرآناً يتلى فى العالمين إلى يوم القيامة.

ونحب هنا أن نسجل أيضا براءة الإمام علىّ بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ مما نسب إليه من موقف معارض ومقولة سوء زعموا أنه قالها فى حق السيدة عائشة إبان حادث الإفك.

إن سمو أخلاق الإمـام علىّ بن أبى طالب وعلـو قدره فى الإسلام حقيقـة لا تقبل الشك، فهل يمـكن أن نتصور أنه يقدم على تـأييد اتهام السيدة عائشـة؟ وما سبب ذلك الموقف الغريب المحير؟ وما الدافع العنيف الذى يدفعه إلى اتخاذ هذا الموقف؟

لنفترض أن السبـب فى ذلك هو أنه أراد أن يكيل لعائشة الصـاع صاعين فى محاولة منه لإرضاء زوجته السيدة فـاطمة التى كانت تغار من عائشة غيرة مبعـثها ما كانت تحتله عائشة فى قلب النبى ﷺ من الحب العظـيم الذى شاع بين الناس، وهى منزلة لم تكن تحتلها منه قبل ذلك سوى أمها السيدة خـديجة. ولكن، هل يصل تعنت الإمام علىّ فى مجاملته لزوجتـه إلى هذا الحد الرذيل الذى يدفعه إلى طعن سيـدة شريفة فى عرضها، وهى زوج النبـى ﷺ وابنة الصديق، خـاصة وأنه لم يكن بـالمفرط فى مجامـلة زوجته وترقيقها حيث لم نعرف ذلك من قبل فى معاملته لها، بل أراد أن يتزوج عليها فى حياة أبيها ﷺ.

وإذا افترضنا أن مـوقفه ذاك كان بمثابة إعلان السـيدة عائشة بالزجر والـتقريع إزاء ما كانت تسببه لأمهات المؤمنين من الضيق ـ كما يحدث عادة بين الضرائر ـ معتمدة فى ذلك على حظـوتها عند النبى ﷺ، فـهل يتسق هذا الافتـراض مع ما علمناه من عـلو خلق الإمام علىّ؟ ثم ماله والكيد لامرأة من نسـاء النبى ﷺ والأخذ بثأر ضرائرها منها؟ وأى ناقة له أو جمل فى مثل هذا الصنيع الذى يربأ الرجال الكرام بأنفسهم عنه وهو من أكرم الرجـال؟ ولماذا يدس بأنـفه فى حـياة نساء الـنبى ﷺ الخـاصة؟ ولماذا يـزج بنفسـه فى مشاكساتهن؟

وحتى لو افـترضنا أن مقولتـه تلك فى حق السيدة عـائشة جاءت من باب النـصيحة وليست من باب الاتهام فإن هذا الافتراض مرفوض لسببين:

أولا: لأننا لا نستـطيع أن نتصور عليا وهو إمـام فى الفقه والشريعة ينـسى فى تلك النصيحة أبسط قوانين الفقه الإسلامى التى لا تقـيم التهمة على المتهم إلا بعد التأكد من إثبات أدلتها عليها إثباتاً تاماً. ومن الواضـح أن نصيحة علىً تلك تحمل فى طياتها إشارة

قوية بالإدانة، مما لا يتوافق قط وروح الشريعة الإسلامية ويتعارض مع ذلك التحرز الشديد الذى أمر به الإسلام فى مثل هذه القضايا، حتى ولو مست من كن دون عائشة فى القدر وفى الثقة، ولا يعقل أن يغفل علىّ عن هذه القوانين التشريعية الإسلامية وهو الإمام العالم، أو أن يتغافل عنها وهو ذو الخلق الحميد.

وثانياً: لأننا لا نستطيع أن نتصور عليا وهو المشهور بذكائه وفطنته يجانبه الصواب فى تلك النصيحة، فليس من الإنصاف فى الإسلام ولا فى الأخلاق أن يطلق النبى ﷺ زوجته ذات الأصل الكريم والتى طغى حبه لها على كل الناس بمجرد ثوران شبهة لفظ بها بعض المنافقين الذين لم يألوا جهداً فى الكيد والوقيعة بين النبى ﷺ وبين أصحابه وآل بيته، فهى مجرد شبهة لا أساس لها، وإقامة الطلاق بناء عليها فجيعة مريرة لقلب النبى ﷺ وحزن له طوال حياته لن ينساه أبداً، كما أن الناس لن يفهموا من تطليقها إلا أن النبى ﷺ قد أدانها وأنف من معاشرتها، ولن يصيبها العار فى ذلك وحدها فقط، بل سيلصق بها وبأبيها وصمة أبدية، بل إن الخطر قد يتعدى عائشة وأسرتها إلى الإسلام كله كدين وعقيدة، فيتخذ المنافقون والمرجفون من صدق حديثهم الذى أفكوا به وجعلوه سبباً للطلاق مطعنا فى صدق الدين نفسه وفى صدق النبى ﷺ ذاته. فهل يغيب ذلك كله عن ذهن الإمام علىً وهو المشهور بذكائه وبعد نظره؟

لذلك كله لا نستطيع أن نصدق ما قيل عن موقف علىّ من حادث الإفك ومقولته فى عائشة، فليس فى خلقه ولا فى شخصيته ما يبرر ذلك على الاطلاق، ولم نجد له فى ذلك أى دافع ولا أى غرض.

ولقد برأت السيدة عائشة بنفسها على بن أبى طالب من ذلك حين حصرت أسماء المتهمين الذين أفكوا عليها ولم تذكر اسمه بينهم(١).

وبرأته مرة أخرى حينما صرحت بأنه كان «مسلما» فى شأنها، وقولها «مسلما» جاء على روايتين(٢): رواية بكسر اللام المشددة، ورواية أخرى بفتحها، والرواية الأولى من

(١) البخارى ٧/ ٣٥١

(٢) البخارى ٧/ ٣٤٩/ هـ ٣

التسليم وإذاً فهى تعنى أنه كان ساكتا فى شأنها إذ أن تسليم الأمر بمعنى السكوت، وأما الرواية الأخرى فمن السلامة، وإذاً فهى تعنى أنه كان سالما من الخوض فيه.

وإن المتأمل فى الآيات الكريمة التى أنزلها الله فى براءة عائشة يجدها تبرىء أيضاً عليا من هذا الموقف، وذلك لأن الله تعالى قال: «إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم»، ثم قال فى الآية التى بعدها مباشرة: ﴿لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين﴾، فدل تتابع هاتين الآيتين على أن هناك نوعا من التقابل بينهما، وأن الله تعالى قسم الناس فى موقف عائشة إلى فريقين ظاهرين: فريق أصحاب الإفك، وفريق المؤمنين، ولا ثالث لهما كما نرى بوضوح فى الآيتين الكريمتين، ومما لاشك فيه أن الإمام عليا كان من أوائل المؤمنين ومن أتقاهم، ولم نجد واحداً فقط من الناس يضعه مع من تولوا كبر هذا الإفك.

والذى يمكن أن نطمئن إليه هو أن ذلك الموقف كان من صنع الأمويين أو الشيعة، فالأمويون كانوا من ألد أعداء علىّ، وكان بعض خلفائهم يحاولون لصق التهمة به، فهذا هشام بن عبد الملك يتأول قوله تعالى: «والذى تولى كبره منهم»(١)، فيقول فى غرور وتعصب وكذب وعناد: هو علىً، ويمارى فى ذلك عالمين جليلين هما سليمان بن يسار والزهرى اللذان أكدا له أنه عبد الله بن أبىّ بن سلول، وليس عليا(٢). وهذا عبدالملك بن مروان يبلغه أن عليا قال: «ما بدأت فى حق عثمان بشىء، ولئن شاءت بنو أمية لأباهلنهم(٣) عند الكعبة خمسين يمينا ما بدأت فى حق عثمان بشىء»، فيقول عبد الملك بن مروان: «أنى لا أحسبه صادقا»(٤).

أما الشيعة فقد كانوا يكرهون السيدة عائشة كرها شديداً، حتى لقد جعلوا من لعنها وأبيها على لسان علىّ قربة إلى الله، كما نرى فى كتابهم «مفتاح الجنان»، فلا غرو أن

(١) سورة النور/ ١١
(٢) الدر المنثور ٥/ ٣٢ ـ ٣٣
(٣) لأباهلنهم: لألاعننهم. والمباهلة الملاعنة.
(٤) العقد الفريد ٤/ ٣٠٢

يدسوا تهمة عائشة على لسان علىّ بدافع من سخطهم عليها لخروجها ضد على فى حرب الجمل التى زعزعت حكمه وعجلت بنهايته.

ومن ناحية أخرى فإنه لمما يبعث الشك لدينا فى التلفيق على الإمام علىّ ما نجده من تعدد رواة حادث الإفك واختلافهم واختلاط أقوالهم، حتى ليقول الزهرى ـ وهو الذى حمل لنا عنهم هذا الحديث: «وكلهم حدثنى طائفة من حديثها، وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض وأثبت له اقتصاصا... وبعض حديثهم يصدق بعضاً، وإن كان بعضهم أوعى له من بعض[1]..، ولعل هذا الاختلاف والاختلاط هو السر فى تلك الاضطرابات التى نلاحظها فى وقائع حادث الإفك، كما لعلها كانت المنفذ الذى تسللت إليه مقولة علىّ المصنوعة وأقحمت فيه، وإلا لماذا لم يرد فيها ذكر فضل السيدة عائشة فى التيمم؟ ولماذا لم يذكر موقف عمر بن الخطاب وهو الذى نصفها وزكاها، كما لم يذكر إلا موقف على؟

وهكذا نخلص إلى نتيجة واضحة وهى أن مقولة علىّ فى حادث الأفك غير صحيحة، وأن عليا برىء منها كبراءة السيدة عائشة من الإفك.

وقعة الجمل:

مما لاشك فيه أن المعلومات الخاصة بفتنة عثمان وحرب الجمل التى وصلت إلينا عن طريق المصادر العربية القديمة معلومات يشيع فيها الاضطراب والتناقض، ويضرب حولها الغموض أطنابه، وتختلط فيها الحقائق بالخيال وبالأهواء المذهبية والنوازع الشخصية.

وفى رأيى أن حرب الجمل تعد من أفظع الحروب المشئومة التى وقعت خلال التاريخ الإسلامى كله، فقد كانت أول حرب مريعة تقع بين المسلمين، ووقف فيها صحابة رسول الله ﷺ وقفة الخصوم والأعداء وجهاً لوجه، وانقسم المسلمون معهم شيعا وأحزابا. ومن الحقائق الثابتة أن السيدة عائشة لعبت دوراً أساسياً وبارزاً فى هذه الفتنة

(١) البخارى ٦/ ٣٤٠/ ٣٦٢٨

لا يمكن لأحد أن يتغافل عن نتيجته المـؤلمة. ولا نريد أن نقول الآن فى تفصيل أمر هذه الحرب وما ترتب عليهـا من نتائج فى حياة الأمة الإسلامية، فهذه على الـتحقيق مسألة تاريخية لا نملك أدوات البحث الحقيقى فيهـا، ومع ذلك فإن محاولة التميز بين الأخيار والأشرار فى هذه الحرب باتت صعبة عسيرة، بقـدر صعوبة محاولة تفسيخ الصلات بين الصحابـة، وذلك بسبب ما أضافـته الروايات المضطربـة والمتعارضة والمنحـولة فى شأن أصحاب هذه الموقعة.

وفاة السيدة عائشة:

فى ليلة الثلاثاء لـتسع عشرة خلت من شهر رمضان سنة ثمـان وخمسين للهجرة(١). أسلمـت السيدة عـائشة الروح إلـى بارئها بعـد حياة حافـلة، ملأت فيـها بصر الـتاريخ وسمعه، وتركتنا ـ نحن أبناءها ـ من بعدها نبحث فى حياتها وفى سيرتها وندرس تأثيرها فى تاريخ الإسلام السياسى والعلمى.

وقد دفنت ليلا بعد الـوتر، وكان الليل مظلماً فلم يجد المشيـعون بداً من أن يحملوا جريدا فيه خرق غـمسوها فى زيت وأشعلوا فيـها النار لتضىء لهم الطـريق إلى المقابر، وازدحم الناس وتجمعوا حـول النعش، ولم تر ليلة أكثر ناساً منـها، ونزل أهل العوالى إلى المدينة، وبدت النساء وسط المقابر والنيـران وكأن اليوم عيد. وصلى عليها أبو هريرة وسط مقابر البقيـع، ونزل فى قبرها خمسة من آل الصديق، ورقدت الـسيدة عائشة فى قبرها بالبقيع(٢)، غفر الله لها، ورضى عنها وأرضاها.

---

(١) ابن سعد ٨/ ٥٣ ـ ٥٥

(٢) ابن سعد ٨/ ٥٣، ٥٥، عبد الرزاق ١/ ٤٠٧/ ١٥٩٣، ٣/ ٤٧١/ ٤٣٦٦، ٣/ ٥٢٥/ ٦٥٧٠